حقيقة التصوف الإسلامي، وما له، وما عليه

الباحث: فاروق يحيى عبد الحميد موسى

تحت إشراف/

١.د صالح عطيه صالح ١.د عطيه مصطفى محمد حسين

الملخص:

التصوف علم يقصد به إصلاح القلوب، وصلاح الأعمال، ويطلق عليه أسماء متعددة منها علم التصوف، أو الجانب الروحي، أو الأخلاقي، أو غير ذلك، وهو علم قائم على تزكية الأنفس، والرقي بها؛ بغية الوصول إلى أشرف المقامات، وهو مقام الحب الإلهي، والتعرف على حقيقة الذات الإلهية المقدسة ذات النعم والعطايا، المستفيضة على العباد بالهداية التي تحقق لجموع الخلق وافر السعادة، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(١)، لحق به كسائر العلوم كثير من الدخلاء والأدعياء، فوضعوا فيه ما ليس منه، وأظهروه للناس بغير مظهره الحقيقي، حتى صار بعض الناس يفتئت عليه ويجرمه، وصار بعضهم يغار عليه ويسانده، ولأنَّ الأمَّة في حاجة إلى تغذية الروح بطريقة علمية تجنبها كثيرا من الخرافات والأوهام فقد قام أهل العلم والتصوف المخلصون بهذا التوازن؛ إذ لم يقف تصوفهم عند حد التأييد والحب والانتماء فقط، وإنَّما امتد إلى نشر الصوفية الحقة، مقتدين بمن سبقهم من الثقات.

summary

Sufism is a science intended to reform hearts and righteous deeds, and it is called by various names, including the science of Sufism, or the spiritual or moral aspect, or otherwise. In order to reach the most honorable stations, which is the station of divine love,

and to get acquainted with the reality of the holy divine being with blessings and gifts, abundantly upon the servants with the guidance that achieves abundant happiness for the masses of creation, the Almighty said: {And whatever blessing you have is from Allah} (Surah An_Nahl: Part of Verse ٥٣), Like all sciences, many intruders and pretenders joined it, so they put in it what is not from it, and showed it to people without its true appearance, until some people began to attack it and criminalize it, and some of them became jealous of it and supported it, and because the nation is in need of nourishing the soul in a scientific way that avoids many myths and delusions. The sincere people of knowledge and mysticism made this balance. Their Sufism did not stop at support, love and affiliation only, but extended to spreading true Sufism, following the example of the trustworthy ones who preceded them.

الكلمات المفتاحية/ التصوف، تاريخه، مؤسسيه، رد الافتراءات عنه.

Keywords/ Sufism, its history, founders, refuting the fabrications about it.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

١- هذا البحث المختصر يدور حول تعريف التصوف، ومنهجه، وأهميته، وتاريخه، وأبرز مؤسسيه، وما له وما عليه، والرد على ما ألصق به من شبه، وأقوال العلماء في أهله،

وهو يتكون من ثلاثة مباحث: المبحث الأول يتناول التعريف بالتصوف وحقيقته، والمبحث الثاني يتناول تاريخ التصوف، والمبحث الثالث ما للتصوف، وما عليه، والرد على معارضيه، وقد اتبعت في بحثي المنهج التاريخي؛ للوقوف على ما مرَّ به التصوف من أحداث، والمنهج الاستقرائي؛ وذلك بتتبع ما كتب عن التصوف إيجابا أو سلبا؛ للخروج بالنتيجة المرجوة، والمنهج التحليلي؛ وذلك بدراسة مفردات البحث بأسلوب علمي واضح مستخدما تنظيما معينا للوصول إلى الحقائق والنتائج.

ومما سبق فإنَّ البحث يتنوع منهجه حسب حالة كل جزئية من أجزاء البحث.

المبحث الأول: ماهية التصوف وحقيقته.

أولا: تعريف التصوف:

توارث علماء الأُمَّة اسم التصوف وحقيقته عن أسلافهم من المرشدين منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا(٢)، ولِمَا للتصوف من شهرة واسعة فقد أخذ التصوف مساحة كبيرة في مؤلفات الباحثين؛ وقد يرجع ذلك لِمَا أثاره هذا اللفظ من تعريفات مختلفة في اللغة والاصطلاح؛ إذ إنَّ اسم الصوفية محدث لم يوصف به أحد من الصحابة في العهدين الأولين، عهد النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وعهد الصحابة ــ رضوان الله عليهم ـ من بعده(٣).

التصوف لغة: ذكر أئمة الصوفية عددا من الاشتقاقات التي أُخِذَ منها التصوف، ولكن لم يتفقوا على واحدة منها تكون أصلاً لاشتقاق التصوف، ومن ذلك: أنَّه مأخوذ من الصَفاء؛ لأنَّ التصوف يهدف إلى ترقية النفس لإسعادها(٤)، وذلك عن طريق صفاء القلب وتجرده عمَّا سوى الله عز وجل(٥)، أو من الصف الأول؛ لوقوفهم بين يدي الله ــ عز وجلَّ ــ بهمم عالية، وقلوب مطمئنة، وأسرار صافية(٦)، أو من الصِّفة والصفوة (الكاملين)؛ لأنَّه اتصاف بالكمالات(٧)، أو من أنّه نسبة إلى الصُّفة الواقعة بمسجد النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ؛ لأنَّ الصوفية متشبهون بأهلها في التوجه والانقطاع(٨)، أو من الصوف لأنَّ جُلَّ لباسهم الصوف زهداً في الدنيا(٩)، وذهب الدكتور عبد الحليم محمود إلى أنَّ التصوف مشتق من الصوف، ويمت بصلة إلى باقي الاشتقاقات(١٠).

التصوف اصطلاحا: للتصوف أكثر من ألف تعريف(١١)، ويرجع ذلك إلى أنَّ للتصوف أحوالا، وأذواقا قد تختلف من شخص إلى آخر(١٢)، ومن هذه التعريفات: قال الكرخي (ت: ٢٠٠هـ): "التصوّف الأخذ بالحقائق، واليأس ممّا في أيدي الخلائق"(١٣)، وقال بشر الحافي (ت: ٢٢٧هـ): "الصوفي من صفا لله قلبه"(١٤)، وقال الجُنَيْد (ت ٢٩٧هـ): التصوف هو "الخروج عن كل خُلُقٍ دني، والدخول في كل خُلُقٍ سني"(١٥)، وقال أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ): "التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية"(١٦).

وحاصل لفظ التصوف عند علماء التصوف يرجع إلى التحلي بالأخلاق الحميدة، وفناء العبد عن نفسه وبقاؤه لربه، وكل منهما يدل على حقيقة التصوف، غير أنَّ الأول عملٌ تكليفيٌ واتصافٌ للظاهر، والثاني نتيجة لما سبق من عمل واتصاف للباطن، وحاصل الجمع منهما هو التصوف(١٧).

ثانيا: منهج التصوف:

هذا المنهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن الكريم، والسنة النبوية، واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهديه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده ــ كغيره من العلوم ــ جيلاً بعد جيل حتى جعلوه علما سَمَّوه بعلم التصوف(١٨)، غايته صلاح القلب، وموضوعه: الأخلاق القرآنية المحمدية، وثمرته: تنوير القلب وصفاؤه، والفوز برضا الله ــ تعالى ــ (١٩)، ونسبته: أنَّه فرع علم التوحيد، وثمرة علم الفقه من حيث العمل به، واستمداده: من الكتاب والسنة، وتجارب الصالحين السالكين، وحكمه فرض عين كما قال الإمام الغزالي؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض قلبي، إلا الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ (٢٠)، ويشترط في التصوف صدق التوجه، وهو مشروط بما يرضاه الحق تعالى، فهما متلازمان كتلازم الأرواح للأجساد(٢١).

ثالثا: أهمية التصوف وفائدته:

تتمثل أهمية التصوف في أنَّ جملة ما كلف به الإنسان من تكاليف شرعية خاصة به مرجعه إلى أحكام تتعلق بظاهره (بدنه وجسده)، وباطنه (قلبه ونفسه) معا، وما يتعلق بالباطن أهم؛ لأنَّه أساس الظاهر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢٢)، وقال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: "أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"(٢٣)، وذلك الصلاح يحتاج إلى التزكية(٢٤).

المبحث الثاني: تاريخ التصوف، وأبرز مؤسسيه:

أولا: تاريخ التصوف.

حظي المسلمون في حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بصحبة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقيل لهم الصحابة، وتَسمَّى من صَحِبَ الصحابة بالتابعين، ثُمَّ اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممَّن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعبّاد والنسَّاك، فلمَّا طغت المادية بعد اتساع الفتوحات، وظهرت البدع، واعتنى كثير بظاهر الدين، وأعمال الجوارح لا بروحها، نشط الصوفية في سد هذا الفراغ الروحي، واعتنوا بالعمل على تطهير الباطن قبل الظاهر، فحظي التصوف بالشهرة قبل المائتين من الهجرة(٢٥).

وفي القرن الثالث من الهجرة عُنِي أهل التصوف بالتعمق في دراسة النفس الإنسانية والعمل على تعديل سلوكها، حتى إذا أخذ العلماء في تدوين العلوم المختلفة كالفقه والأصول وغيرها، كتب رجال من أهل هذه الطّريقة في طريقتهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النّفس على الاقتداء في الأخذ والتّرك كما فعله القشيريّ في كتاب "الرّسالة"، والسّهروردي في كتاب "عوارف المعارف" وأمثالهم، ومن بعدهم جمع الغزاليّ ــ رحمه الله ــ بين الأمرين في كتاب "الإحياء" فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثمّ بيّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وصار علم التّصوّف في الملّة علما مدوّنا بعد أن كانت الطّريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنّما تتلقّى من صدور الرّجال كما وقع في سائر العلوم الّتي دوّنت بالكتابة من التّفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك(٢٦).

ثانيا: أبرز رجاله ومؤسسيه.

ومن رجال الصُّوفِيَّة ــ بعد الصحابة (رضوَان الله عَلَيْهِم) ــ الذين نطقوا بعلومهم، وَعبَّروا عن مواجيدهم، وَنشروا مقاماتهم، وَوصفوا أَحْوَالهم قولا وفعلا، فهم الْأَعْلَام المذكورون المشهورون الْمَشْهُود لهم بالْفَضْلِ، الَّذين جمعُوا علوم الْموارِيث إِلى علوم الِاكْتِسَاب، سَمِعُوا الحَدِيث، وجمعوا الفقه، والكلام، واللغة، وعلم الْقُرْآن، وقاموا

بالمجاهدة والمثابرة؛ حفاظا على هذا الطريق، وذودا عنه، وطلبا للمعالي من القرب والمشاهدة والمعرفة، تشهد بذلك كتبهمْ ومصنفاتهم: عَليّ زين العابدين بن الإمام الحسين، وَابْنه مُحَمَّد الباقر، وَابْنه جَعْفَر الصَّادِق، وهرم بن حَيَّان (مات بعد ٢٠هـ)، وأويس الْقَرنِي (ت: ٢٧هـ)، وَالْحسن الْبَصْرِيّ (ت: ١١٠هـ)، وَمَالك بن دِينَار (ت: ١٣١هـ)، وسُفْيَان الثَّوْرِيّ (ت: ١٦١هـ)، وَإِبْرَاهِيم بن أدهم (ت: ١٦٢هـ)، وَدَاوُد الطَّائِي (ت: ١٦٢هـ)، والفضيل بن عِيَاض(ت: ١٨٧هـ)، وسُفْيَان بن عيينة (ت: ١٩٨هـ)، ومعروف الْكَرْخِي (ت: ٢٠٠هـ)، وَأَبُو سُلَيْمَان الدَّارَانِي (ت: ٢١٥هـ)، وَبشر الحافي(ت:٢٢٧هـ)، وَأحمد بن أبي الْحَوَارِي الدِّمَشْقِي (ت: ٢٣٠هـ)، وَأحمد بن خضرويه (ت: ٢٤٠هـ)، الْبَلْخِي (ت: ٢٤١هـ)، وَذُو النُّون الْمصْرِيّ (ت: ٢٤٥هـ)، والسري السَّقطِي (ت: ٢٥٣هـ)، والبسطامي (ت: ٢٦١هـ)، وَأَبُو حَفْص الْحداد النَّيْسَابُورِي (ت: ٢٦١هـ)، وَسَهل بن عبد الله التسترِي (ت: ٢٨٣)، والخَرَّاز (ت: ٢٨٦هـ)، وَالنوري (ت: ٢٩٥هـ)، الإمام الْجُنَيْد (ت: ٢٩٨هـ)، وَيُقَال لَهُ لِسَان التصوف، وأبو مُحَمَّد رُوَيْم (ت: ٣٠٣هـ)، وأبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، وغيرهم الكثير(٢٧).

المبحث الثالث: التصوف ما له وما عليه، والرد على معارضيه.

أولا: ما للتصوف وما عليه.

إنَّ التصوف يمتد الى أكثر من ألف ومائتي سنة.. وقد ظهر في أهله الحقيقيين أنَّهم أهل الصفات العالية، والقيم السامية، والعلوم النافعة، والتربية السليمة، إذ إنَّ منهم صفوة مختارة، تقدم نماذج عليا للسلوك، ومثلا للإلهام والتأسي، ومع ذلك فقد حاول الانتساب إليهم من هو شاطح بعيد عن حقيقة ما هم فيه، فتبنى نظريات تأتي من هنا أو من هناك، وآفة التصوف هي آفة كل علم إنساني من الانحراف عن روح العلم، والابتعاد عن غايته، وإساءة فهم مقصده، فكما أنَّ آفة الفقه والقانون هي التزام الشكل وإطراح المضمون، وآفة العلوم الطبيعية إساءة استخدامها، فاستخدمت من أجل التدمير بدلا من التعمير، إلى غير ذلك من آفات العلوم المختلفة، كذلك آفة التصوف هي الحفاظ على بعض الأمور الشكلية بدلا من السلوك المطابق لروح التصوف ومبادئه، وإذا ما أردنا أن نميز بين هذا وذاك فلا ينبغي أن نسم جميع من

انتسب إلى التصوف بميسم واحد.. لأنَّ هذا ليس من العلم ولا من الموضوعية ولا من الأمانة(٢٨)

ثانيا: أقوال العلماء في أهل التصوف.

ذكر الإمام المحاسبي أنَّه بعد جهاد مرير للوصول إلى الحق اهتدى إلى التصوف ورجاله الذين هم دلائل التقوى، فكانت صحبتهم سببا في نجاته(٢٩)، وأثنى عليهم الإمام القشيري بأنَّهم صفوة الأولياء، المفضلون على كافة العباد بعد الأنبياء والمرسلين، أصحاب القلوب النقية، والأسرار العلية(٣٠)، وزكَّاهم الإمام الغزالي بأنَّهم أهل السيرة الحسنة، والطريق الصائبة، والأخلاق الكريمة، وأنَّهم هم أهل السلوك الحقيقي لطريق المولى ــ سبحانه وتعالى ــ (٣١)، ووصف الإمام الرازي طريقهم بالحسن، وعدَّهم من خير الناس(٣٢)، وذكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) أنَّه قد تأمل الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم ير صوفيا محققا يقول بشيء منها، وإنَّما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادَّعوا أنَّهم صوفية وليسوا منهم(٣٣)، وهذا قليل من كثير من أقوال العلماء المنصفين فيهم .

ثالثا: الرد على شبهاتٍ ألصقها البعض بأهل التصوف.

إذا أردنا أن نقف على جملة ما للتصوف وما عليه، فعلينا أن نقف على حقيقة ما يتهم به التصوف من قبل معارضيه، وأنَّ نحاول الكشف عن حقيقة دعواهم بإيجاز يوضح المعنى ويفي بالمقصود إن شاء الله ـ تعالى ـ، ومن ذلك ما يلي:

الأول: دعوى أنَّ التصوف ينتسب إليه من ليس من أهله: لو نظرنا إلى من يدَّعي التصوف وليس من أهله لوجدنا أنَّ هؤلاء كُثُر؛ فإنَّ منهم من اغتر بالمظهر والتشبه الظاهري بعيدا عن المجاهدة والمراقبة، ومنهم من ترك الأمور تكاسلا وتواكلا مُدَّعيا بأنَّه من أهل التوكل والمحبة، وغير ذلك... وما وقعوا في ذلك إلا لبعدهم عن العلم، وتفريطهم في الإذعان لشيخ عالم يصلح للاقتداء به(٣٤)، ولو رفضنا التصوف لوجود أدعياء بين أهله لرفضنا سائر العلوم، فعلم الحديث والتفسير لحق به وضَّاعون ودخلاء كما هو معلوم، كذلك سائر العلوم، ولكن بقيت العلوم بأصالتها، وذود أهلها المنصفين عنها.

الثاني: تأثر التصوف بالثقافات الأخرى: لم يخل التصوف عند بعض من ينتسبون إليه من التأثر ببعض المؤثرات الوافدة من نظم صوفية أخرى، جاءت من خارج

البيئة الإسلامية، بسبب الترجمة أحيانا، أو بسبب اتصال المسلمين ــ بعد الفتوحات ــ بشعوب أخرى كالهند وفارس، وكان من آثار هذه العوامل كلها أن ظهر لدى بعض الصوفية أقوال ونظريات مشابهة لبعض ما ظهر في النظم الصوفية الأخرى، وأدى ذلك إلى أن تتفاوت نظرة المسلمين إلى التصوف، فمنهم أنصار يرون في التصوف طريق الولاية، وخصوم يرون التصوف بدعة وضلالة، وآخرون اتخذوا موقفا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه ابن تيمية الذي قال عن الصوفية: "الصواب هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة"(٣٥)، ولعل هذا الموقف الأخير هو أولى الآراء بالقبول، لأنَّه أقرب إلى الموضوعية والإنصاف، وأبعد من التعميم والتعصب المذموم.

الثالث: اتهام الصوفية بأنَّهم من أهل البدع: يعتقد معارضو التصوف في الصوفية أنَّهم متساهلون في الاتباع، وأنَّهم يلتزمون في أقوالهم وأعمالهم ما لم يأت به الشرع الحنيف، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنى الصوفية عليه طريقهم هو اتباع السنة واجتناب ما خالفها، وقد ذهب القشيري أنَّهم إنما اختصوا باسم التصوف تمييزا لهم عن أهل البدع(٣٦)، وقال الإمام الجُنَيد ــ إمام الصوفية ــ: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ"، وقال: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأنَّ علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"(٣٧)، وكذلك قال كثير من أئمة التصوف.

الرابع: اتهام أهل التصوف بالجهل: وليس الأمر كذلك إذ إنه من إيمان الصوفية بأهمية العلم وفضله وشرفه يرى الإمام الطوسي (ت: ٣٧٨هـ) أنَّ الصوفية قد جمعوا أنواع العلوم، فلم ينفردوا بعلم دون باقي العلوم، ولا بحال دون حال؛ لأنَّهم معدن العلوم، ومحل الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة(٣٨).

الخامس: اتهام أهل التصوف بالتواكل والكسل ودنو الهمة: إنَّ علو الهمة والجهاد لهما عند الصوفية مكانة عظيمة، قال محمّد بن علي التّرمذي (ت: ٢٩٦هـ): "الصّوفي يكون مجموع الهمّة على الحقّ، فمن تفرّقت همّته فليس بصوفي"(٣٩).

السادس: الصوفية ودعوى سقوط التكاليف: أمَّا ما ذكر من أنَّ بعض الصوفية أسقط عن نفسه التكاليف فهذا ليس من الصوفية في شيء، ومن نسبه إليهم فقد أعظم الفرية عليهم، فقد اشتد إنكار الإمام الجنيد على من سأله عن أقوام يقولون

بترك الحركات بِرًا وتقوى، فحدَّد الجنيد عملهم بقوله: "إنَّ هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم"، ثم وصف شنيع أمرهم فقال: "والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا"، ثم فرَّق بين هؤلاء وبين أهل المعرفة فقال: "إنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ــ تعالى ــ، وإلى الله رجعوا فيها"، وأتبع ذلك بثباته على الحق وبانتمائه لأصحاب المعرفة فقال: "ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة إلا أن يحال بي دونها"(٤٠)، ووصف السهروردي فعلهم بعين الإلحاد والزندقة والإبعاد، منكرا عليهم دعوتهم البعيدة عن حقيقة الدين الحنيف(٤١).

السابع: اتهام الصوفية بترك الأسباب، وعدم التكسب: إنَّ الباحث عن أعلام الصوفية يجد أنَّ من ألقابهم الورَّاق، والقصَّار، والخرَّاز، والخوَّاص، والبزَّار، والحلاَّج، والزجاجي، والحُصري، والصَيرَفِي، والمِقْرِيء، والفرَّاء، وهذه كلها مهن لأصحابها من الصوفية، يتكسبون منها ويؤدون منها حق الله ــ تعالى ــ (٤٢)،والفرق بينهم وبين غيرهم، أنَّ الدنيا كانت لا تستعبدهم كما تستعبد غيرهم(٤٣).

الثامن: اتهام أهل التصوف بالدعوة إلى الاتحاد والوحدة والحلول:

إنَّ من أهم ما يتحامل به المنكرون على الصوفية اتهامهم جهلا وزورا بأنَّهم يقولون بالحلول والاتحاد، بمعنى أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد حلّ في جميع أجزاء الكون، في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان.. إلخ، أو بمعنى أنَّ المخلوق عين الخالق، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله ـ تعالى ـ وعينه ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا(٤٤).

إنَّ هذه الفكرة يتبرأ منها الصوفية؛ إذ ليس من عناصر التصوف الاتحاد أو الوحدة أو الحلول، وهم بعيدون عنها كل البعد، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم، فالمحاسبي (ت:٢٤٣هـ) الذي هو من زعماء الصوفية لا شيء عنده من ذلك، وكذلك الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، ورابعة (ت: ١٣٥هـ)، وغيرهم الكثير(٤٥).

التاسع: اتهام التصوف بأنَّ كثيرا من مشايخه من الفرس: لو أُنكِر ذلك على التصوف لأُنكِر على كثير من علوم الدين، فالبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني، والبيهقي، والزمخشري، والطبري، وابن سينا، وغيرهم الكثير ليسوا من العرب، وليس من الإنصاف أن يشاد لهؤلاء وهم من غير العرب بعلومهم، ويتهم التصوف بأنَّ كثيرا من أهله من غير العرب(٤٦).

العاشر: اتهام التصوف بأنه لا دور له في الإسلام؟ عند الرجوع إلى تاريخ التصوف والصوفية نجد أنَّ للصوفية أدوارًا متعددة في الإسلام وليس دور واحد، فللتصوف دور اجتماعي، من الحث على معالجة بخل النفس وشحها، وإسعاد الآخرين، ومحاولة القضاء على الأمراض المجتمعية التي تكون عائقا في طريق سعادة المجتمع(٤٧)، وله دور كبير في نشر الدعوة الإسلامية في كثير من دول العالم؛ حيث ذكر ماسنيون(٤٨) أنَّ الإسلام انتشر في الهند، وكثير من الدول الإفريقية بفضل الطرق الكبرى من الصوفية الذين نشروا الإسلام بأخلاقهم، وقاموا بالمصالحة بين الطوائف المختلفة(٤٩)، وأمَّا الجهاد فللصوفية دور كبير بالمرابطة على الثغور لحمايتها ضد المعتدين على الحدود الإسلامية، فقد نشأ الإسلام واستمر في جهاد ورباط؛ فالرباطات (وهي قلاع حصينة) في أصلها كانت خنقاوات (أماكن انقطاع المتصوف للعبادة) للصوفية المرابطين فيها للجهاد ضد الأعداء، ومن ذلك ما كان من أمر صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالخير، وحسن السيرة من أبيه نجم الدين أيوب (ت ٥٦٨هـ)، وقد كان كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية، والمجالسة لهم(٥٠).

خاتمة البحث

وبعد ما قدمنا من هذه المعلومات والمعارف الرقيقة عن التصوف ينبغي أنَّ يعلم المنصف وطالب الحق أنَّ إحسان الظن بالمسلمين واجب، وأنَّ حمل عبارات أهل الإسلام على أحسن المحامل أوجب، وليعلم أنَّ في كل طائفة من ينتسب لها زورًا، ولو كان من علامة الحق ألا ينتسب إليه ويدعيه غير أهله الأصليين، ما وجدنا حقًّا يُتَّبَع!، ومن نتائج هذا البحث ما يلي:

١. كان البحث بيانا لحقيقة التصوف الصحيح، وردا علميا على كثير من شبه الطاعنين فيه.

٢. ليس من الإنصاف أن نحكم على حقيقة التصوف من خلال ما أضيف إليه من فلسفة وغيرها، وإنَّمَا الحَكَم على حقيقة التصوف هو القرآن والسنة، وقول العلماء المشهود لهم من أهل التصوف كالإمام الجنيد وأمثاله، لا أقوال الأدعياء ولا الطاعنين، إذ لا ينبغي أن نَسِمَ جميع من انتسب إلى فنٍ من الفنون بمَيْسَمٍ واحد؛ لأنَّ هذا ليس من العلم ولا من الموضوعية ولا من الأمانة العلمية في شيء.

٣. إن التصوف الصحيح من أقوى الدوافع إلى الشعور بالمسئولية، والاعتناء بالقيم والمباديء الفردية والجماعية الروحية والمادية.

٤. غاية المنصفين التعريف بمحاسن الخَلْقِ، وعدم إنكار أفضالهم، مع عدم إسناد العصمة لأحد بعد الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ..

٥. لم يكن أعلام التصوف الصحيح ذوي جهل، وإنما علماء أنقياء، أصحاب علم وعمل، دعاة للسلام النفسي والمجتمعي الشامل للعالم بأسره.

الهوامش:

١ـ (سورة النحل: جزء من الآية ٥٣).

٢ـ عبد القادر عيسى ـ حقائق عن التصوف ص٢١ ـ دار العرفان ـ حلب ـ سوريا ـ ط١٦، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، وماسنيون، ومصطفى عبد الرازق ـ التصوف ص٧٤ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط١، ١٩٨٤م، ومحمد الغزالي السقا (ت ١٤١٦هـ) ـ الجانب العاطفي من الإسلام ص٣ ـ نهضة مصر ـ ط٣، ٢٠٠٥م.

٣ ـ عبد الرحمن بدوي ـ الموسوعة الفلسفية ج١ص٦٤ ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ ط١، ١٩٩٦م.

٤ ـ التفتازاني أبو الوفا ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي ص٣٢ـ دار الثقافة للنشر ـ القاهرة ـ ط٣، ١٩٧٩م.

٥ ـ عبد القادر الجيلاني ـ الفتح الرباني ص١١٥ـ تحقيق: د. أحمد السايح وتوفيق علي وهبة ـ المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ـ مصر.

٦ ـ الكلاباذي أبو بكر ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢١ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧ ـ أحمد زروق الفاسي ـ قواعد التصوف ص٢٨ـ تحقيق: نزار حمادي ـ المركز العربي للكتاب ـ الشارقة.

٨ ـ أحمد ابن عجيبة ـ إيقاظ الهمم ص٢ ـ مراجعة: محمد حسب الله ـ دار المعارف ـ القاهرة.

٩ ـ السُّهْرَوَرْدي ـ عوارف المعارف ج١ ص٧٠ ـ تحقيق: توفيق وهبه، وأحمد السايح ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

١٠ـ عبد الحليم محمود ـ قضية التصوف المنقذ من الضلال ص٣٤ ـ ٣٧ ـ دار المعارف ـ ط٥.

١١ـ عوارف المعارف ج١ص٦٩ (م. س).

١٢ـ المرجع السابق ص٢٥.

١٣ـ القشيري أبو القاسم ـ الرسالة القشيرية ص٤٦٦ ـ تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ـ مطابع مؤسسة دار الشعب ـ القاهرة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٤ـ عفيفي أبو العلا ـ التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص ٣٧ ـ ٤٢ ـ المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.

١٥ـ الأصبهاني ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج١ ص٢٢ـ دار السعادة ـ القاهرة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٦ـ المرجع السابق ج٢ ص٨.

١٧ـ الشاطبي ـ الاعتصام ج١ ص٢٦٦ ـ تحقيق: سليم الهلالي ـ دار ابن عفان ـ السعودية ـ ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٨ـ حسين غباش ـ التصوف: معراج السالكين إلى الله ص ٢٧ ـ ٣٦ ـ دار الفارابي ـ بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

١٩ـ قواعد التصوف لزروق ص٣٦(م. س).

[٢٠]ـ الغزالي أبو حامد ـ إحياء علوم الدين ج١ ص٢١ ـ ٢٢ ـ دار المعرفة ـ بيروت.

[٢١] ـ إيقاظ الهمم لابن عجيبة ص٢ (م. س).

[٢٢]ـ (سورة الكهف: جزء من الآية ١١٠).

[٢٣]ـ البخاري ـ صحيح البخاري (كتاب الإيمان ـ باب فضل من استبرأ لدينه) ج١ ص٢٠ ح٥٢ ـ دار طوق النجاة ـ ط١، ١٤٢٢هـ ـ ومسلم ـ صحيح مسلم (كتاب المساقاة ـ باب أخذ الحلال وترك الشبهات) ج٣ ص١٢١٩ ح١٥٩٩ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

[٢٤]ـ حقائق عن التصوف ص١٧(م. س).

[٢٥]ـ الرسالة القشيرية ج١ ص٤٢، والاعتصام ج١ ص١١٩، وحقائق عن التصوف ص٢٥(م. س).

[٢٦]ـ عبد الرحمن ابن خلدون ـ تاريخ ابن خلدون ص٦١٣ـ تحقيق: خليل شحادة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٧ – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٧ ـ ٣٣.

٢٨ـ زكي مبارك ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ص٤٤ ـ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ـ القاهرة.

[٢٩]ـ المحاسبي ـ الوصايا ص٦٢ ـ ٦٤ ـ تحقيق: عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

[٣٠]ـ الرسالة القشيرية ج١ ص١٥(م. س).

[٣١]ـ الغزالي أبو حامد ـ المنقذ من الضلال ص١٧٧ ـ ١٧٨ـ تحقيق: د. عبد الحليم محمود ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط٤، ١٩٦٤م.

[٣٢]ـ فخر الدين الرازي ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٧٢ ـ ٧٣ ـ تحقيق: علي سامي النشار ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

[٣٣]ـ جلال الدين السيوطي ـ تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية ص٦ ـ تحقيق: عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري ـ المطبعة الإسلامية، ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م.

[٣٤]ـ إحياء علوم الدين ج٣ ص٤٠٤ ـ ٤٠٧ (م. س).

[٣٥]ـ أحمد ابن تيمية ـ أمراض القلب وشفاؤها ص٧٦ ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ط٢، ١٣٩٩هـ.

[٣٦]ـ الرسالة القشيرية ج١ ص٤٢ ـ والاعتصام للشاطبي ج١ ص١١٩(م. س).

[٣٧]ـ الرسالة القشيرية ص٧٩ ـ ٨٠ (م. س).

[٣٨]ـ الطوسي ـ اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ص٩ ـ ٢٤ ـ تحقيق: عماد زكي البارودي ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة.

[٣٩]ـ السلمي ـ محاسن التصوف ص١٣٤ـ ـ تحقق: كِنِث هَنِر ـ مؤسسة فلسفة إيران، طهران، ط١، ١٣٨٨ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

[٤٠]ـ الرسالة القشيرية ص٧٩(م. س).

[٤١]ـ عوارف المعارف للسهروردي ج١ ص٩٠ (م. س).

[٤٢]ـ أحمد بن عباد المحلي ـ المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ص١٠٨ ـ المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٤م.

[٤٣]ـ قضية التصوف لعبد الحليم محمود ص٢٠ـ٢٢(م. س).

[٤٤] – حقائق عن التصوف ص٤٣٤(م. س)

[٤٥]ـ قضية التصوف المنقذ من الضلال لعبد الحليم محمود ص١٢٥(م. س).

[٤٦]ـ محمد زكي إبراهيم ـ أبجدية التصوف الإسلامي ص٢٨ ـ ٣١ ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ ط٥، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

[٤٧]ـ عبد الرحمن بدوي ـ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ص٢٣ ـ ٣٨ ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

[٤٨]ـ هو لويس ماسنيون من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم، تعلّم العربية، وحضر دروسا بالجامع الأزهر مرتديا الزي الأزهري، ودَرَّس في الجامعة المصرية القديمة (١٩١٣م)، وعني بدراسة التصوف الإسلامي (ت ١٩٦٢م)، المرجع: عبد الرحمن بدوي ـ موسوعة المستشرقين ص٥٢٩ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط٣، ١٩٩٣م.

[٤٩]ـ تاريخ التصوف لعبد الرحمن بدوي ص٢٥ (م. س).

[٥٠]ـ عز الدين ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ج٩ ص٣٨٦ ـ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي، بيروت ـ ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

المصادر والمراجع

١. أبو العلا عفيفي ــ التصوف الثورة الروحية في الإسلام ــ المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.

٢. أحمد ابن تيمية ــ أمراض القلب وشفاؤها ــ المطبعة السلفية ــ القاهرة ـ ط٢، ١٣٩٩هـ.

٣. أحمد ابن عجيبة ــ إيقاظ الهمم ــ مراجعة: محمد حسب الله ــ دار المعارف ـ القاهرة.

٤. أحمد بن عباد المحلي ــ المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ــ المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٤م.

٥. أحمد زروق الفاسي ــ قواعد التصوف ــ تحقيق: نزار حمادي ــ المركز العربي للكتاب ـ الشارقة.

٦. الأصبهاني ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ دار السعادة ــ القاهرة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٧. البخاري ـ صحيح البخاري ـ دار طوق النجاة ـ ط١، ١٤٢٢هـ.

٨. التفتازاني أبو الوفا ــ مدخل إلى التصوف الإسلامي ـ دار الثقافة للنشرـ القاهرة ـ ط٣، ١٩٧٩م.

٩. جلال الدين السيوطي ــ تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية ــ تحقيق: عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري ــ المطبعة الإسلامية، ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م.

١٠. حسين غباش ــ التصوف: معراج السالكين إلى الله ــ دار الفارابي ــ بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

١١. زكي مبارك ــ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ــ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ـ القاهرة.

١٢. السلمي ــ محاسن التصوف ــ تحقق: كِنِث هَنِر ــ مؤسسة فلسفة إيران، طهران، ط١، ١٣٨٨ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

١٣. السُّهْرَوَرْدي ــ عوارف المعارف ــ تحقيق: توفيق وهبه، وأحمد السايح ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

١٤. الشاطبي ــ الاعتصام ــ تحقيق: سليم الهلالي ــ دار ابن عفان ــ السعودية ـ ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥. الطوسي ــ اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ــ تحقيق: عماد زكي البارودي ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة.

١٦. عبد الحليم محمود ــ قضية التصوف المنقذ من الضلال ــ دار المعارف ــ ط٥.

١٧. عبد الرحمن ابن خلدون ــ تاريخ ابن خلدون ــ تحقيق: خليل شحادة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٨. عبد الرحمن بدوي ــ الموسوعة الفلسفية ــ المؤسسة العربية ــ بيروت ــ ط١، ١٩٩٦م.

١٩. تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ــ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

٢٠. موسوعة المستشرقين ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ط٣، ١٩٩٣م.

٢١. عبد القادر الجيلاني ــ الفتح الرباني ــ تحقيق: د. أحمد السايح وتوفيق علي وهبة ـ المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ــ مصر.

٢٢. عبد القادر عيسى ــ حقائق عن التصوف ــ دار العرفان ــ حلب ــ سوريا ــ ط١٦، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م.

٢٣. عز الدين ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ــ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ــ دار الكتاب العربي، بيروت ــ ط١، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م.

٢٤. الغزالي أبو حامد ـ إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٢٥. ــ المنقذ من الضلال ــ تحقيق: د. عبد الحليم محمود ــ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط٤، ١٩٦٤م.

٢٦. فخر الدين الرازي ــ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ــ تحقيق: علي سامي النشار ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٧. القشيري أبو القاسم ــ الرسالة القشيرية ــ تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ــ مطابع مؤسسة دار الشعب ــ القاهرة، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م.

٢٨. الكلاباذي أبو بكر ــ التعرف لمذهب أهل التصوف ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٩. ماسنيون، ومصطفى عبد الرازق ــ التصوف ــ دار الكتاب اللبناني ــ ط١، ١٩٨٤م.

٣٠. المحاسبي ــ الوصايا ــ تحقيق: عبد القادر عطا ــ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣١. محمد الغزالي السقا (ت ١٤١٦هـ) ــ الجانب العاطفي من الإسلام ـ نهضة مصر ـ ط٣، ٢٠٠٥م.

٣٢. محمد زكي إبراهيم ــ أبجدية التصوف الإسلامي ــ مكتبة الآداب ــ القاهرة ـ ط٥، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٣٣. مسلم ـ صحيح مسلم ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.